



قيل عن العجوز الصغير المقاوم للانكسار، ولدت على باب خيمة قبل أن تفرغ أمي من إلقاء حزمة الحطب عن رأسها. منحتني الحياة أنفاسى الأولى صمتاً وعينان لم تكونا مغمضتين(1)... قيل في الحكاية كثير.

أشياء تشبه الخرافات إلى حدٍ كبير، تعلمتُ الحرف الأول والأخير خوفاً من معلم عز عليه الابتسام يُشبه الأصنام لا تفارقه العصا كجندى واثق من نفسه على باب أمير. لم أتنكر الخيمة وكيف انقلبت إلى غرفةٍ من الطين، وعرفت فيما بعد أننا في مخيم للاجئين الفلسطينيين.

استمعت إلى أهلي يتحدثون عن فلسطين النكبة، وجيش الإنقاذ وقضايا التخوين.. واستمعت لبعض من خطابات عبد الناصر ولم تكن تلك الكلمات القادمة من الراديو تعنوني أو حتى أفهمها، بل كان تركيزى على ملامح والدي؛ تعابير وجهه زفراته.. حماسه... ابتسامات الرضا وكأنه في لحظاتٍ سوف يتغير.. كانت الأيام تحمل لنا مفاجأةً من العيار الثقيل. صوت المذيع يعلن سقوط مدينة القنيطرة! لم يصدق الرجال الذين تجمعوا في ظل بيت عمى، فطلبو تغيير المحطة بأخرى، فسمينا صوت لندن يؤكّد الهزيمة! ولم يصدقو فقال عمى: افتح على إذاعة إسرائيل بالعبرية، فقد كان بين الرجال من يفهم العبرية، واستمع الجميع بصمت مرهف للنشرة العبرية وكأنهم يفهمون العبرية، رفع المترجم العجوز رأسه عن المذيع ليؤكّد الهزيمة، فأكّد عمى عليه عدة مراتٍ أنّ كان يعي ما يقول، وكانت الإجابة قاطعةً. غاب عمى عن الجميع عدة دقائق وعاد يا لهول المفاجأة فصرخ به والدي أين شاريبيك يا رجل؟! فرد تسبيقه دموعه على خده لم نعد رجال من الآن والى الأبد، نحن مجرد حريم كلنا حريم، الشوارب تحتاج لمن يحميها، ونحن كما ترون أقل من الفاصلات في بيوت الأيتام. بدا رجالاً مهزوماً منكسرًا متراجعاً عن أي معنى لأي فرصة أمل، بكى الرجال ورأيت دموع والدي تهزمي بل تقتلني فبكى فبكى بصمت الحاذدين، بل ربما العاجزين..

كان يتشكل في داخلي نسخاً مشوهًةً عن أحلام والدي بل ومشكوكاً بها أيضاً، ولربما تشوهدت أكثر يوم استيقظت بعد منتصف الليل قرابة الفجر على صوت سيارة عسكرية وأربعة من الرجال المزركسين في لباس الميدان الكامل، ولأول مرة في حياتي اشتُم رائحة شواء لحم ونفير كل بيتنا في مثل هذا الوقت من الليل!! وما حيرني من أين جيء باللحم!! فعرفت أنه بالدين. قيل أنهم من الفدائين وغادروا إلى الأردن لحماية الثورة، كان عليَّ أن أعيد ترتيب الصورة من جديد. فهل نحن

معنيون بالأردن أم فلسطين؟! لم تتأخر الإجابة كثيراً فقط أيام ولمحت صورة الانكسار تهزم والدي، وما زاد من بؤسي وحدى يوم دخلت غرفته فوجدها مع شقيقه الأكبر يغرقان بالدموع... ذهلت حقاً وتبين لي أن عبد الناصر قد مات ولم أكن يومها أعرف عبد الناصر، فكل ما عرفته أنه كان سيحرر فلسطين كما اعتد والدي حينها، فحزنت لاعتقادي أن والدي لن يرى الفرج بعدها.

كان شيء ما في داخلي حزين إلى درجة الجنون، وكنت متمنياً أدنى شيء يبعث على الأمل، قد اكتشف به شكل الفرح، الانتصار وربما ابتسامة تشي أنها لازلت تستطيع أن نفعل شيء. نعم كنت صبوراً ولكنني كنت شكاكاً ولا أسلم نفسي للإدعاءات وتصديق العروض البهلوانية، فقد كنت قادرًا أن أقيم قدرًا من المحاكمة العقلية مؤكداً أن المدرسة هي صاحبة الفضل فيه.

في المخيم يحيل شهر آب الحياة إلى جحيم لا يطاق، تنشر الريح الغبار من كل اتجاه ويتحول المخيم إلى لفة من الغبار، ويصبح الخروج في أزقته أمراً اضطرارياً، لا أدرى ما الذي جعلني أقف على التافدة لأرى شاب يرتدي بنزة تخرج الكلية الحربية معتمراً على رأسه قبعة متطاولة إلى الأعلى يُزيّنها ريشٌ ناعم أبيض لكنه لم يعد كذلك، بل بدا وكأنه يضع طائر التدرج الصحراوي فوق رأسه لا يعرف كيف يثبتها وعيونه تطوف في كل اتجاه على أحداً ما يرى البطل المغوار...
لقد خانته الأحوال الجوية ولم تشبع رغباته. أدركت وقتها أن الحرب القادمة ستكون تماماً مثل جولة الملاzym الصغير حركة استعراضية لن يستعيد عمي شاريه، ولا أعلم ماذا سيفعل وماذا سيخسر؛ فقد قررت أن أكون بجانبه في نهايتها حال وقوعها. وفعلاً حدثت الحرب وكانت أول من قفز إلى داره لأبلغه بها، وجذته يسقي شجرة الزيتون! قلت له: الحرب.... قواتنا تقدم... تجتاز الحدود!! لم يبتسِم! بقيت ملامحه كما هي.. حدق بي مليأً وما كان يحتاج إلى وقت ليفكر، فعلى ما يبدوا ترسخت به قناعة بشكل نهائي أن لا فائدة ترجى من هذه الحرب. رد عليه بصوت محайд وجاف مثل الصخور في الصيف: (خبر أبوك إذا بدو يهرب هالمرة، هو حر أنا لا... لن أهرب.... تجيء إسرائيل بجيء معها عزرايل أنا مش هربان يكفي...). وتتابع الرجل عمله وكأن شيئاً لا يحدث. عرفت باليقين القاطع أن النهاية السعيدة لن تصنعها قبعتها ريش النعام! لا الأبيض منها ولا حتى الصحراوي. ففي اليوم السابع هرب ضباط ريش النعام! رأيتهم بأم عيني يهربون ويختبئون في عربات زراعية بين النساء والأطفال. أحد الضباط أعطاني بندقيته - كلاشنكوف - كانت جميلةً ورائعةً. أول مرة رأيتها في الأعراس. رفضت البندقية ربما لأنها ليست لي، وربما كوني لا أعرف استخدامها، فسألت الضابط: إلى أين ستذهب؟ قال: إلى الفندق بعض أيام وتنتهي الحرب، قلت: الحرب انتهت فعلاً ولن تحتاج إلى فندق، ولن يستعيد رجال شواربهم وسنصبح الأمة الحليقة. استنشاط الضابط غضباً فقال: هذه الحرب تحريكية كما صممها الروس والأمريكان. الروس أعطونا صواريخ سام تغطيانا عشرة كيلومتر فقط وبعد العشرة كيلو يصبح الداخل مفقود وعلى هذا لن نحرر أرض... السادات أوقف الحرب البارحة وتحول كل الضغط علينا ونحن بغباء تجاوزنا العشرة كيلو بغباء... بغباء... فهمت.. فهمت.. قلت له: ولما لا تحلق شاربيك!! رد بحزن شديد: جمعاً إن شاء الله. سأله الضابط ربما ليغير الموضوع: وأنت ماذا ستفعل؟ أجبت دون تردد أو حتى أدنى تفكير: سأكتب قصصكم. قل: نحن لسنا جبناء بل قطيع أغnam يقودها الراعي الكذاب، وهل تعرف قصة الراعي الكذاب؟ هزت رأسي بها حكمة عظيمة قال: إني أُعلنك كاتباً عظيماً ورائداً للمدرسة الواقعية الحديثة، قلت له: كف عن الخطابات ومدح الآخرين بما لا يستحقون، أنت جندي محترف تعرف كيف تخبيء، ولكن لا تعرف كيف تنتصر، لماذا لا تعود إلى الجبهة وتحتفظ بالعشرة كيلو؟ رد الضابط: لا عشرة ولا متر واحد. الروس خونة كشفوا سر صواربهم لليهود وأنت عجوز صغير وكهين..... تركني الضابط عند أول مفترق طرق واتجه إلى قلب المدينة.. لا أنكر أن حوارنا بلور بداخلي ما معناه - أن ثوب العيرة لا يرد البرد -، ولن يعيد لرجل حر شارب مرهون بنصر لا يبدوا أنه قريب المنال. وأشد ما يؤلمني أن عمي تجاوز عقدة التسعين، وتوفي متقدماً أن شنب الرجل يحتاج لمن يحميه، وإنما سيكون عرضة للإهانة وتهكم الأعداء. من

يدري لو بقي حياً أكان يمكن أن يطلب حظراً جوياً أو حماية دولية أو حتى تدخل أجنبى. أكان سينجاح طلبه أم أنَّ فيتو أمريكا يقطع عليه كل هذه السبل!!!!؟

(١) المانح هو الله -تعالى، ولعل الكاتب لم يتتبه لذلك. (نور سوريا).

المصادر: